القومية العربية والعروبة: هل هما مفهوم واحد أم مفهومان مختلفان؟

أ/ محمد حواس

جامعة الجزائر 2

قسم الفلسفة.

بدأت بشائر القومية العربية الحديثة في الظهور في النصف الأول من القرن التاسع عشر بفضل احتكاك العرب بالفكر والحضارة الأوروبية التي وفدت مع حملة نابليون لمصر، وكذلك بسبب احتكاك أهل الشام بالفكر الغربي الذي اطلعوا عليه في مدارس الارساليات التبشيرية. وهكذا أدرك بعض المثقفين والتجار والساسة الثمار والمنافع التي يمكن للعرب أن يجنوها اذا انفتحوا على الحضارة الغربية على الصعيد العلمي والسياسي.

ومن هنا بدأت الدعوة إلى القومية العربية بالمفهوم الحديث، فأنشأ في البداية المثقفون القوميون جمعيات فكرية، وثقافية، لإحياء التراث العربي و نشر الوعي القومي ، وتصاعدت مجهوداتهم الى انشاء جمعيات وأحزاب سياسية كانت تسعى الى الاستقلال عن الاتراك ثم الوحدة بين الشعوب العربية. وهكذا تدرجت بأهدافها ومناهج نضالها إلى أن أصبحت حركة قومية عربية عامة واسعة الانتشار وقوية، تمتلك رؤية واضحة، وتضع نصب عينيها أهدافا محددة تتمثل في الوحدة وبناء دولة قومية عربية مستقلة. واصبحت هذه القومية واضحة المعالم والغايات تسندها نظريات فكرية وفلسفية متماسكة بالرغم من اختلاف مرجعياتها ومشاربها وتياراتها.

وفي بداية هذه اليقظة القومية، كان المفكرون والمثقفون العرب يستخدمون مصطلح "الجنسية" بدلا من مصطلح "القومية". ولكن حل محله مصطلح القومية للدلالة على هذه الظاهرة المتمثلة في الجماعة البشرية العربية التي كانت تسعى الى الاستقلال عن الامبراطورية العثمانية وتوحيد العرب في دولة واحدة. ويرى

البعض ان شيوع مصطلح القومية بدل مصطلح الجنسية يدل على نضج الحركة والدراسات القومية العربية لأنه أدق في التعبير عن الظاهرة القومية. وكذلك استخدم الأدب السياسي العربي الحديث مصطلح "الأمة" العربية تحديدا للجماعة البشرية العربية ومصطلح العروبة للدلالة على القومية العربية.

وقد شغلت فكرة القومية العربية المفكرين والسياسيين العرب من شتى الاتجاهات والمدارس لعقود طويلة ، وما تزال الى يوم الناس هذا تشغل الأجيال الجديدة وتؤثر فيهم ، والواقع ان العديد من القرائن توحي بأن تأثيرها سيمتد الى الأجيال القادمة من سكان العالم العربي، ولابد أنها ستشغل حيزا مهما من نشاطهم السياسي والفكري. لكن كثيرا ما تقفز الى الذهن عند دراسة الفكر القومي العربي بعض الاشكالات مثل لماذا يطابق القوميون العرب بين بعض المفاهيم التي ليس لها في الحقيقة نفس المعنى والدلالة؟ مثال ذلك أن الدارس للفكر القومي العربي يلاحظ أن جل المفكرين القوميين يستخدمون لفظ العروبة بمعنى مرادف للفظ القومية العربية والأمة العربية. هذا التطابق في الدلالة يأتي في كتاباتهم على سبيل العطف أو البدل. لكن ما مدى صحة هذا الموقف؟ وهل هذه المفاهيم هي فعلا شيء واحد أو أشياء مختلفة ؟

معنى العروبة.

العروبة تعني انتساب إلى جنس هو العرب والى الحضارة العربية دينا وتاريخا ولغة، وهو انتساب ينبغي ان يكون مجردا عن أي معنى سياسي، ولذا فمن الممكن أن يكون الإسلامي عروبياً والماركسي عروبياً والليبيرالي عروبيا وكذلك يكون كل من الأمازيغي والكردي والقبطي أيضا عروبيين، والتقدمي عروبيا والرجعي عروبيا أيضا. لأن العروبة تصبح عبارة عن شعور بالانتماء ليس الى جنس فحسب بل الى هوية وحضارة. لكن لماذا وَحَّدَ القوميون العرب بين العروبة والقومية والأمة العربية؟

يوجد سببان في اعتقادنا وراء هذا التوحيد بين مفهومي العروبة والقومية العربية، يكمن الأول في أنهم نظروا الى العرب كجنس واحد موطنه شبه الجزيرة العربية وبعض أنحاء الشام والعراق ، ثم ربطوا بين الجنس والدم والعرق والقومية. فأصبح الانتماء القومي عندهم إما مرادفا أو موحيا أو ملمحا على الأقل لرابطة الدم والعرق. وبنوا على هذه النظرة فكرتهم القائلة أن الوحدة السياسية بين العرب أمر طبيعي وأنها آتية لا مناص منها. وهي نظرة شبيهة بالفكرة القومية الألمانية أو "الجرمنة" التي نادى بها هردر وفيشته أو هي سيّان معها. أما السبب الآخر وهو الرغبة في القضاء على القوميات الأخرى التي تعيش في العالم العربي عن طريق إذابتها في العروبة.

تحليل فكرة العروبة:

لكن ماذا نجد لو حللنا الحكم الآتي: ((القومية العربية هي العروبة)) أو ((العروبة هي القومية العربية[1]))، وهو حكم يتبناه القوميون العرب وعزيز على قلوبهم؟ نستنتج ما يلي:

1-أن العلاقة بين المفهومين ليست علاقة تطابق كما يعتقد القوميون. لأننا عندما نحلل هوية الموضوع لا نجده يتضمن معنى المحمول. فتأكيد ان القومية العربية ليست هي العروبة أمر ليس متناقضا مع ذاته.

2- ليس كل عربي يحمل بالضرورة الفكرة القومية، بينما يحمل كل عربي نزعة العروبة أو بالتخصيص نقول مثلا أن المفكر القومي مفكر عربي؛ ولكن ليس كل مفكر عربي هو مفكر قومي، والفكر القومي فكر عربي بينما الفكر العربي ليس فكرا قوميا. الأول جزء من الثاني ومستغرَق فيه، والجزء لا يحدد الكل، بل يتحدد به. فالعروبة أشمل من القومية والعلاقة بينهما كالعلاقة بين الكل والجزء.

[1]- يقول الجابري في هذا الصدد: ((...أن يكون الانسان "عربيا"، هو أن يكون "عروبيا"، أي نزوعا نحو تعزيز الوحدة الثقافية القائمة بوحدة اقتصادية ونوع من الوحدة السياسية.)) أنظر، محمد عابد الجابري، مسألة الهوية العروبة والاسلام...و الغرب، مرجع سابق، ص، 15.

3-إن الخلط بين القومية العربية -سواء كنظرية ايديولوجية او كحركة سياسية- وبين مفهوم العروبة يؤدي على الأقل الى نتيجتين هما : اخراج كل عربي لا يتبنى الايديولوجية القومية من العروبة وكذلك إخراج العرب الذين نشأوا في بلاد المهجر وينتمون الى تلك الأمم. وهذه نتائج خطيرة وغير واقعية وغير صحيحة. إذن الحكم خاطئ من الناحية الواقعية، والصحيح أن نقول ((العروبة هي غير القومية العربية)).

4-إذا كان من الصعب أو من المتعذر على القومي العربي ان يشكك في صينية الصيني او فرنسية الفرنسي أو أمريكية الأمريكي، مهما كان انتماؤه السياسي ومهما كان أصله ودينه ولونه والأرض التي هاجر منها واللغة التي يتحدث بها ، فلماذا هذا الاستثناء عندما يتعلق الأمر بالعرب والعروبة[2] ؟ ان الصين تضم عددا لا يحصى من القوميات الصغيرة، وفرنسا تتشكل من عدد كبير من القوميات التي لم تنصهر تماما في الكتلة الغالية، وأمريكا تؤلف مزيجا من القوميات التي هجرت اليها ، بل هي أمة المهاجرين بامتياز، اوروبيين كانوا في أصلهم أم غير أوروبيين. ومع ذلك نقول عنهم جميعا أنهم صينيون او فرنسيون او امريكان. لكن لماذا لا يكون الأمر كذلك مع العرب والعروبة؟

5-العروبة ليست عقيدة سياسية للعرب ولا تحديدا سياسيا لهم ومن ثم لا تحتم أن يكون لهم دولة واحدة، بل هي في حقيقتها فضاء ثقافي مشترك نسبيا[3] بين

---

[2]-يتحدث سكان الولايات المتحدة اللغة الانجليزية كما هو معروف، لكن هناك ولايات تنتشر فيها اللغة الاسبانية بل تسود.

[3]- يتوهم الكثير من الناس أن الثقافة المعبر عنها باللغة العربية الفصحى يشترك فيها جميع العرب بنفس الدرجة، وتعبر بتساو عن هوية و واقع وهموم وتطلعات كل الشعوب العربية ، ويتعرف كل عربي فيها على ذاته، لكن الحقيقة أنها تعبر بالدرجة الأولى عن البلد الذي رأت فيه النور. لأن الأديب أو المفكر أو الفنان او المثقف بصفة عامة يصدر في اعماله عن وجهة نظر تتلاءم مع ثقافته ومفاهيمه والبيئة التي عاش فيها، وعليه إذا استعرضنا ما انتجه المثقفون من أعمال مختلفة تبين لنا بوضوح أنهم كانوا يعبرون عن هموم وواقع مجتمعاتهم التي نشأوا بين ظهرا نيها وربطهم بها علاقات الانتماء والهوية والحب والتبجيل الى درجة التضحية من أجلها.

جميع العرب، هذا الفضاء يُوَلِّدُ بينهم روابط وجدانية بالرغم من أنها ليست على درجة واحدة من القوة والحدة والصدق، أما القومية فهي عقيدة سياسية لتيار أو اتجاه معين أو حزب بعينه.

6-الفكر القومي حديث النشأة، هو وليد القرن التاسع عشر أو عصر القوميات كما يسميه البعض. أما العروبة او الانتساب الى العرب فهي حقيقة موضوعية قديمة.

ولذا عند الحديث عن العروبة، يمكن أن نفعل ذلك من عدة زوايا لأنها تستعمل بمعاني مختلفة، فهي قد تعني:

7-العروبة كواقع إنساني[4]وجغرافي[5].

8-العروبة كهوية ثقافية تتمثل في منظومة قيم ، واساليب حياة متوارثة ومنتشرة في بيئة جغرافية محددة، ولغة عبر ويعّبر اصحابها بها منذ القدم ولايزالون الى يوم الناس هذا عن أفكارهم وعواطفهم ويتواصلون بواسطتها فيما بينهم. وهي الدين الاسلامي الذي يعتنقه أغلب المنتسبين الى العروبة. وهي أيضا ما شيده المتحدثون بها من أنساق فكرية في شتى ميادين المعرفة الانسانية من علم وأدب ودين وفلسفة وفن شكل تراثا حضاريا متميزا.

9-العروبة كأيديولوجية قومية وحركة سياسية منظمة ورغبة قوية في إقامة وحدة سياسية على أرض محددة تسمى البلاد العربية. وهذا هو المفهوم الذي يعطيه القوميون للعروبة منذ أن فعل ذلك ساطع الحصري. وقد تحولت هذه الايديولوجية الى تيار سياسي فعال وجارف وعرفت انتشارا كبيرا في البلاد العربية سيما في الستينات والسبعينات من القرن العشرين وبلغت أوجها كفكرة وكحركة في قيام الوحدة بين بين مصر وسوريا.

4- يمكن الكلام عن عروبة الشعب الذي يتخذ اللغة العربية لغة يومية، بما في ذلك لهجاتها الدارجة. وعروبة الثقافة والحضارة، والعادات والأخلاق.

5- يمكن الكلام عن عروبة الأرض، وهي البلاد الممتدة من الحيط الأطلسي الى الخليج العربي.

تحليل فكرة القومية:

أما القومية[6] فهي من حيث الاشتقاق اللغوي تعني فيما تعنيه القوم المنحدرين من صلب جد واحد، ومع التطور التاريخي انسلخ معناها عن جذوره اللغوية ونبت لها معنى جديد يدل على ظاهرة ايديولوجية وحركة سياسية حديثة. يمكن تلخيص معناها هكذا:((القومية هي وعي الأمة بوجودها ودخولها في مشروع تحقيق وحدتها إن كانت مفتتة أو تحررها ان كانت خاضعة لأمة أخرى ، ومن ثمة تكوين دولتها الخاصة بها.))

القومية تعبر عن ظاهرة سياسية واجتماعية ظهرت في المجتمعات الغربية في القرن التاسع عشر لاسيما في انجلترا وفرنسا، تجسد وعياً سياسيا جديداً يمجد جماعة محدودة من الناس، تعيش على أرض لها حدود معروفة متعينة تعتبرها أرضها ، ويجمعها تراث مشترك، وتنتمي عادة إلى أصول عرقية متداخلة لأن من الصعب جدا أن تنتمي الأمة الى قومية واحدة حتى وإن توهم الناس أنهم ينتسبون الى عرق معين مخصوص. وأهم هدف للقومية هو أن يصبح لأبناء الأمة الواحدة وطن يجمعهم، والحفاظ على تلك الوحدة والوطن واعتبار ذلك مصلحة عليا للأمة.

يتبنى كثير من المفكرين القوميين العرب مفهوما معينا وخاصا للقومية، يرفضه قوميون آخرون، لكن في المقابل يعتبرون أنفسهم عروبيين ويشعرون بذلك، مثال ذلك دعوة بعض القوميين الى قومية وطنية أو إقليمية وبالتالي ينادون بوحدة جزء من العالم العربي.

نلاحظ أن فكرة القومية العربية التي تعني أن العرب يشكلون أمة واحدة وتهدف الى توحيدهم تحت راية واحدة يرفضها عرب آخرون إما لأنهم يعتقدون أنها مستحيلة الحدوث أو أن المشترك اللغوي لا يكفي لذلك. فاللغة وحدها لا تستطيع توحيد شعوب مختلفة الواقع والتاريخ والثقافة.

---

[6]-سبق أن حللنا فكرة القومية فلا داعي لتكرار ما قلناه في هذا الصدد.

فالمؤمنون بالقومية العربية إذن يختلفون في ملامح هذه القومية ويتفاوتون في تصورهم لشكلها ومضمونها ويختلفون في سعتها ومداها ، لكنهم متفقون على العروبة.

نستنتج بناء على ما تقدم ان مفهومي العروبة والقومية ليسا متطابقين أو سيّيْن. فالعروبة هي انتماء الى جنس او بالأحرى الى شعوب تتحدث باللغة العربية[7] وهي انتماء كذلك الى هوية وحضارة[8] معينة، أما القومية فهي نظرية ايديولوجية او حركة سياسية منظمة تؤمن بالوحدة العربية وترغب في إقامة وحدة سياسية بين الشعوب العربية وتعمل على تجسيدها على أرض محددة هي العالم العربي او الوطن العربي كما يصر القوميون على تسمية البلاد العربية.

النتيجة التي توصلنا اليها من خلال تحليل مصطلحي القومية والعروبة هي أنهما مفهومان مختلفان، والجمع بينهما يؤدي الى الوقوع في اخطاء ويجلب الكثير من الصراعات والمشاريع الفاشلة. والدوافع الى ذلك الجمع قائم على عدم تحديد دقيق للمفاهيم وكذلك له دوافع ايديولوجية وسياسية.

أن القول السائد بين القوميين أن العروبة هي القومية العربية والوحدة العربية ليس دقيقاً، لأن العروبة انتماء وواقع موضوعي مشهود بينما الوحدة العربية مشروع مستهدف والمشروع يحتمل ان يتحقق على ارض الواقع كما يمكن أن يبقى حلما في أذهان اصحابه.

أن العروبة كلمة أضفى عليها القوميون أكثر مما تحتوي بالفعل، ولم يقدموا تعريفا علميا لها. فهي في استعمالهم تفتقر للدقة العلمية.

---

[7]-بما في ذلك اللهجات الدارجة.

[8]-يعتبر الملايين من عرب المهجر من الاجيال الثانية والثالثة وغيرهم أنفسهم عربا ويشعرون بانتمائهم للعروبة بالرغم من جهلهم التام باللغة العربية، وشعورهم بالانتماء الى الأمم التي ولدوا ونشأوا بين ظهرانيها وهي أمم غير عربية كما هو واضح.

نظر القوميون الى ((العروبة)) على أنها تكاد تكون ظاهرة ((طبيعية))- فالعروبة تسيل في العروق كالدم- هذا المفهوم البيولوجي للعروبة مماثل تماماً للمفهوم الألماني العرقي ((للجرمنة)).

المراجـــــع

1- ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثالثة، 1967.

2- أمين أحمد ، فجر الاسلام، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 2006.

3- برقاوي أحمد ، محاولة في قراءة عصر النهضة، (الاصلاح الديني ، النزعة القومية) الطبعة الثانية، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1999.

4- انطونيوس جورج ، يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية، تر: د/ناصر الدين الأسد ود/امين فارس، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة،1978.

5- بلقزيز عبد الإله ، نقد الخطاب القومي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، اكتوبر 2010.

6- الجابري محمد عابد ، مسألة الهوية العروبة والاسلام...و الغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، أبريل 1994.

7- جلال السيد ، حقيقة الأمة العربية وعوامل حفظها وتمزيقها، بيروت ، دار اليقظة العربية ، 1973.

8- -ساطع الحصري، ما هي القومية، دار القلم للملايين، بيروت. ص 199.

9- الشويري يوسف ، مسارات العروبة نظرة تاريخية، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية ، بيروت ، يونيو ،2011.

10- علي عباس مراد وعامر حسن فياض، الظاهرة القومية مدخل الى الفكر القومي العربي، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا ، الطبعة الأولى،1998.

11-عوض لويس ، دراسات في الحضارة ، دار المستقبل العربي، القاهرة ، ط. الأولى، 1989 .

12-الغزالي الشيخ محمد ، حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثالثة، أكتوبر 2005.